**الأستاذة: لمياء عيطو**

**مقياس: مدخل إلى الأدب المغاربي المكتوب باللغة الأجنبية**

**المحاضرة موجهة لطلبة السنة الثانية دراسات أدبية ( الفوج 03/02/01 )**

## المحاضرة الثالثة: ثلاثية محمد ديب "الحريق"

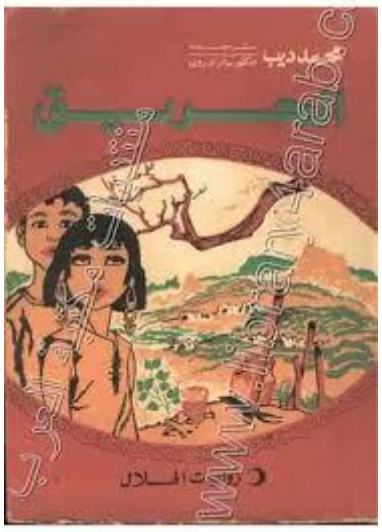


حل الصيف وسافر عمر إلى ريف بني بوبلن الذي يبعد عن مدينة تلمسان ببضعة كيلومترات، بصحبة زهور ابنة الجيران التي ذهبت لزيارة أختها المتزوجة هناك، وفي ذلك الريف أحس عمر بطعم الحرية وسعادة غامرة لم يتعود عليها من قبل، لكنها مع ذلك كانت حرية ناقصة تشبه حرية المنفى مسيجة بالفقر ومطبوعة بطابع البؤس والحرمان الذي كان باديا على أطفال الفلاحين، ويعلن عن نفسه من خلال الملابس الرثة التي كانوا يرتدونها، وهو ما كان مشتركا بين المدينة والقرية « لقد التقى عمر هناك بأطفال أكثر شقاء منه، أطفال كانت لهم هيئة الجراد من فرط ما يبدو عليهم الهزال والنرفزة، لم تكن ملابسهم إلا خرقا ملفقة، وكانوا يحمون أقدامهم بنعال من جلود الأغنام مربوطة بسيور رقيقة من الحلفاء ... في هذا العالم الحزين كان الأطفال يبدون مثل عمر مبكرين في نموهم، ولهم إدراك مماثل للشقاء كان يلمع في عيونهم، حتى وإن اختلف مصدر شقائهم عن شقائه».

لقد كان عمر في الريف يعيش نوعا من السعادة، حيث أنه لم يعد مشكل الجوع يؤرقه فقد كان يأكل حتى يشبع في كل الوجبات، وبشكل منتظم وأحيانا في في أوقات غير أوقات الأكل العادية، لأن السيد قارة علي الذي نزل عنده كان ميسور الحال يعيش رغدا مما تدره الأرض من الغلال، ومشكلة الجوع غير مطروحة بالنسبة إليه مثل ما هو الحال بالنسبة لأغلبية الفلاحين الآخرين الذين لا يملكون أرضا ويشتغلون عند السيد قارة علي.

**التاريخ الحي يحاكي عمر:**

لقد قابل عمر الكومندار ذلك الرجل المقعد الذي كشف له عما يجهله، وقد اكتسب اسمه هذا من خدمته الطويلة في الجيش الفرنسي من خلال مشاركته في الحرب العالمية الأولى، وفيها بترت ساقيه، وبسبب إعاقته هذه لم يعد قادرا إلا على التأمل أو الحديث الذي ينبع من تجربته العميقة في الحياة والتي تعلم فيها أشياء كثيرة لم يكن ليتعلمها لو ظل في ريف بني بوبلن يعيش كبقية الفلاحين الآخرين.

لقد كان حديث الكومندار لعمر طويلا عن أرض بني بوبلن وعن أهلها الفقراء الذين تحاصر أكواخهم الكرم المسيجة، وعن المستوطنين الذين ملكوا البلاد ويريدون بعد ذلك أن يملكوا رقاب العباد، وعن نساء بني بوبلن اللائي يذبل جمالهن بسرعة، وعن الجدة أم الخير التي عاشت بأيام الحرية قبل مجيئ الفرنسيين، وعن البطالة التي يعاني منها أغلبية الفلاحين ، وعن الجوع الذي يلازمهم معظم الوقت، إلا أن الكومندار كان واثقا رغم نبرة الحزن التي كانت تخالط صوته، أن الوضع سيتغير، وأنه سيأتي يوم يثور فيه الفلاح وينقلب على المستغلين الأجانب، يقول: « قويا ورهيبا، لابد أن يكون ولا بد من يوم يحمي فيه بالسلاح بيته وحقوله ».

**الحصان الطائر رحلة نحو الحرية:**

لقد كان أغرب حديث سمعه عمر من الكومندار هو قصة الحصان الطائر الذي رآه الفلاحون يعبر سماء بني بوبلن في ليالي الصيف المقمرة، ويطوف بآثار المنصورة كأنه يذكر الفلاحين بماضيهم، وماضي أجدادهم: « رأى بعضهم ممن كانوا يجلسون أمام أكواخهم، تحت أسوار المنصورة حصانا أبيض، بلا سراج ولا لجام، ولا فارس، ولا رحل وعرفه يهتز بعدو جنوني كان حصانا بلا لجام ولا سرج بياضه أبهر عيونهم وغاص الحصان المدهش في الظلام وما كادت تنقضي دقائق معدودات حتى عاد وقع أقدام الحصان يطرق الليل من جديد .. كانت الأبراج الإسلامية التي قاومت الفناء تلقي بظلالها الكثيفة في وضح الليل ».

أوضح الكومندار لعمر أن قلوب الفلاحين لم تطر هلعا من ذلك الحصان العجيب، وإنما راحوا يتابعون جريه في شيء من الإجلال والخشوع، وتمكنوا من فهم الرسالة التي حملها إليهم، وراحوا يخاطبونه بهذه العبارات: « اجر يا حصان الشعب، في ساعة النحس وفي الطالع السيء ، اجر إلى الشمس وإلى القمر »، وهذا تحول الحصان الطائر إلى حصان الشعب، وأصبح ظهوره في سماء بني بوبلن بشير خير، يترقب الفلاحون ظهوره في كل مساء، بقدر غير يسير من الشوق والفضول: « منذ تلك الليلة بات الذين يلتمسون لأنفسهم مخرجا، والذين يبحثون في تردد عن أرضهم، والذين يريدون أن يتحرروا وأن يحرروا أرضهم باتوا يستيقظون في كل ليلة ويمدون آذانهم منصتين، إن جنون الحرية قد صعد في رؤوسهم، من ذا سيحررك أيتها الجزائر؟ إن شعبك في الطرقات ويبحث عنك ».

لقد فهم عمر من الكومندار أن شيئا خطيرا سيحدث، ولكنه لم يفهم على وجه التحديد ما هو، ولا استطاع أن يتصور مدى خطورته، ولكنه فهم على كل حال، ما أضافه هذا الرجل المحنك حين تحدث عن الكيفية التي انتزعت بها أراضي الفلاحين، وبعد سماع عمر كل ذلك بادر إلى السؤال بقوله :« لكن، أتعرف ماذا يجب فعله من أجل أن نعيش حياة غير هذه ؟»

وأجابه الكومندار على الفور، وكأنه كان يتوقع منه مثل هذا السؤال وبكل بساطة: « يجب تحطيم الظلم، ودفنه »، وكان هذا هو خلاصة ما تعلمه عمر من الكومندار: يجب تحطيم الظلم ودفنه.

**الإضراب/ الحريق/ الوطن:**

في بني بوبلن تمكن عمر من أن يفهم معنى الوطن بشكل صحيح ومختلف عما كان قد تعلمه في المدرسة الفرنسية، كما تمكن أن يفهم معنى الشعب، ومعاني أخرى مثل وجود أغلبية جزائرية مضطهدة وفقيرة مستغلة، وأقلية أجنبية تتسلط على الأرض وتستغل عرق الفلاحين وتستأثر بخيرات أرضهم، عرف ذلك على الطبيعة وبشكل مباشر من خلال حياة الفلاحين الصعبة التي كان يشاهدها ومن شكواهم المرة التي كان يسمعها، ومن هيئتهم المزرية ومن القمع المسلط عليهم من رجال الدرك.

كما عرف عمر من المزارعين والفلاحين والعمال الزراعيين وأصحاب الأراضي من المستعمرين الفرنسيين الذين يجتمعون فيطيلون الاجتماعات ويتكلمون فيكثرون من الكلام ويتناقشون فيسهبون في النقاش، وكل أحاديثهم ومناقشاتهم وكلامهم إنما يدور حول الواقع الجزائري، أن ثمة في الجو شيء جديد وأن هناك بداية وعي جديد يتفتح في أذهان الفلاحين، هو وعيهم لواقعهم والبؤس الذي فيه يعيشون. لقد ظهر في هذه المنطقة، وفي مناطق أخرى كثيرة من يطرح هذا السؤال الكبير الخطير « لماذا لا نعيش على هذا النحو؟» وأن مجرد طرح مثل هذا السؤال وأن عليه أن يسعى إلى تغييره بأي ثمن.

لم تلبث هذه النقمة أن تتحول إلى عمل منظم، فقد قرر الفلاحون ذات يوم أن يقوموا بإضراب، ويشكل هذا الإضراب محور الرواية في اعتقادنا. فقد تحول التذمر والشكوى شيئاً بعد شيء إلى عمل مثمر، وها هو حميد سراج المناضل الثائر الذي رأيناه في الرواية الأولى مطارداً يفتش رجال الشرطة بيته، ويخطب في اجتماعات الناس، يعود إلى الظهور مرة ثانية في هذه الرواية، ليشد أزر الفلاحين، ويوجه مناقشاتهم ويفتح أعينهم على طرق الخلاص وسبل التحرر . ومن الطبيعي أن يعزو الحكام وأنصارهم من المزارعين إلى حميد سراج التحريض على الإضراب ومسؤولية ما قام به الفلاحون، وينتهي الأمر بالسلطات إلى أن توعز بالقبض عليه وسجنه وتعذيبه.

لقد كان هذا الإضراب إرهاصاً للثورة ونتيجة لبؤس طويل مستديم، فهو حصيلة العمل الشاق الذي لا يفضي إلا إلى الفقر المدقع. وفي أثناء الاستجوابات كانت الشرطة تلح في السؤال لمعرفة المحرضين على الإضراب فكان الفلاحون يجيبون بقولهم: « المسؤول عن الإضراب هو البؤس الذي نحن فيه».

ومن بين الإجابات المحيلة إلى أن البؤس هو الذي أدى إلى الإضراب الشامل: « صاح علي بن رباح في ختام المناقشات: منذ خمسة عشر يوماً ولم نر قطرة من الزيت في بيتنا. إني مدين للبقال وليس معي ما أدفعه له. إننا نموت شيئاً فشيئاً .إننا نطالب بحق الحياة لنا ولأطفالنا».

ويقول آخر مخاطباً إخوانه: «أنا من دوار (عشبة) ولكنني عملت دائماً هنا، وأنا وزوجتي لم يتركنا الجوع في يوم من الأيام. فلو آخذتموني إلى دكان بائع من باعة الطعام لأكلت كل ما عنده. إن أطفالي يموتون جوعاً. لذلك أقول: امضوا في الإضراب إلى النهاية .لقد بلغنا غاية البؤس فما الذي نخشاه؟ بالأمس القريب جاءني بيان الضرائب، فإذا هم قد سجلوا علي ثماني مواعز، ولم يكن عندي منها إلا اثنتان، والآن لا أملك إلا ماعزة واحدة. هذا هو الوضع».

غير أن هذا الإضراب الذي جاء نتيجة حتمية لواقع الأمور كان أمراً عجيباً مفاجئاً بالنسبة إلى المستعمر الفرنسي. فهو للمرة الأولى يشهد هذا التمرد، وللمرة الأولى يجابهه الفلاحون الحفاة العراة بالرفض، وأن الحياة التي ألفها طويلاً قد حدث اليوم ما يعكر صفوها. وعبثاً سعى المستعمرون إلى إغراء الفلاحين فحاولوا استمالتهم بالوعد والوعيد إلا أنهم رفضوا شتى أنواع الإغراءات وأبدوا تضامناً وصعوداً غريبين.

كان الحريق في ذات ليلة، لقد أضرمت النار في أكواخ الفلاحين الذين يعملون في المزارع الفرنسية انتقاماً وبطشاً، فأحرقتها وشردت أصحابها. إلا أن هذا الحريق الذي أريد له أن يكود ردعاً وزجراً وقضاء على التمرد لم يكن إلا بداية لنار أكبر منه هي نار الثورة. « لقد شب حريق، ولن ينطفئ هذا الحريق في يوم من الأيام. سيظل هذا الحريق يزحف في عماية، خفياً مستترا، ولن ينقطع لهيبه الدامي إلا بعد أن يغرق البلاد كلها ».

ويعود عمر آخر الصيف إلى بلدته وإلى الدار الكبيرة، لتجابهه المشكلة القديمة، مشكلة الخبز. لقد انتهت العطلة وأنبأ عمر أمه بأن العودة إلى المدرسة قريبة. إنه في حاجة إلى ملابس نظيفة وإلى كتب... إن مطلباً من هذا النوع هو دائماً تمهيداً لمشاجرة بينه وبين لالة عيني.

**المرجع المعتمد في المحاضرة:**


- أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية.